٢٤ ـ مستقبل الثقافة السياسية بين مفاهيم السلام والتعايش والمقاومة(*)

أ. السيد ياسين(**)

مقدمة

الثقافة السياسية السائدة فى مجتمع ما صراحة أو ضمنًا لا بد أن تعتمد على الذاكرة التاريخية، والتى هى إحدى الأسس التى يقوم عليها الوعى التاريخى، وقد سبق لى الاهتمام بموضوع الذاكرة التاريخية، بمناسبة مؤتمر فرنسى / مصرى مشترك، ألقى فيه أستاذ فرنسى شهير بحثًا عن الذاكرة التاريخية المصرية والفرنسية معًا، واكتشفت أن الاهتمامات الجارفة التى ساقها البحث الفرنسى عن ضعف وتهافت الذاكرة التاريخية المصرية؛ مردها إلى عيوب جسيمة فى منهج بحثه؛ لأنه لم ينطلق من إطار نظرى واضح فى دراسة الذاكرة التاريخية عمومًا. . وقد اقترح فى تعليقه أن تتم دراسة الذاكرة التاريخية بالاعتماد على منهج صاغه للفيلسوف البولندى آدم شاف، وطبقه فى دراسة الأيديولوجية. . ويقول آدم شاف إن **هناك ثلاثة مقتربات لدراسة الأيديولوجية: هناك الاقتراب التاريخى**؛ وهو كيف تشكلت الأيديولوجية، **والاقتراب البنيوى**؛ ومعناه العناصر التى تتشكل منها الذاكرة التاريخية، وخصوصًا النظر إلى الذات والنظر إلى الآخر (راجع هنا بالنسبة للذاكرة التاريخية المصرية كتابات الجبرتى من حيث نظرته إلى المصريين ونظرته إلى الفرنسيين)، **وأخيرًا الاقتراب الوظيفى**؛ أى الوظائف التى تقوم بها الذاكرة التاريخية، وخصوصًا أنها مجال إرهاف الوعى التاريخى للشعوب.

(*) نص مفرَّغ.

(**) مستشار مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية.

الذاكرة التاريخية إذن هى إحدى الأسس الهامة لبلورة الوعى التاريخى. وإذا أردنا أن نعرِّف الوعى التاريخى نقول إنه: «هو البنية الكلية لمختلف الأشكال التى نشأت تلقائيًا كالرواية والحكاية والأسطورة، أو تلك التى بدأها العلم، والتى يعى من خلالها المجتمع ماضيه، من خلال إعادة إنتاج الأحداث وتقييمها، أو بعبارة أخرى هى التى من خلالها يعيد المجتمع إنتاج حركته عبر الزمن». وقد أخذت هذا التعريف من «أ. راكيتوف» المفكر الروسى، فى كتابه «المعرفة التاريخية» الذى صدر فى موسكو عام ١٩٨٢.

بناء على هذا يمكن القول إن الذاكرة التاريخية العربية الحديثة بدأت تكونها مع مواجهة الدول العربية المختلفة مع الاستعمار، سواء كان الاستعمار استيطانيًا كما كان فى الجزائر، أم احتلالاً تقليديًا كما فى العديد من دول المغرب العربى (المغرب وتونس وليبيا)، ودول المشرق (مصر والعراق)، أو نظم الانتداب (فى سوريا وفلسطين). وإذا راجعنا الذاكرة التاريخية العربية فى مجال الاستعمار؛ ستظهر لنا أسماء تاريخية لأبطال عرب بشهادة العرب المحكية عن أنفسهم، من أمثال رواد حرب التحرير العربية الشعبية فى العالم العربى. لدينا اسم الأمير عبد القادر الجزائرى فى الجزائر، والأمير عبد الكريم الخطابى فى المغرب، وعمر المختار فى ليبيا.

ولدينا أيضًا فى الذاكرة التاريخية العربية حرب التحرير الجزائرية المجيدة، ونضالات الشعب المصرى والسورى والعراقى والفلسطينى ضد الاحتلال الإنجليزى والفرنسى والصهيونى، وفيها النموذج المعاصر لدينا حرب أكتوبر عام ١٩٧٣؛ وهى حرب مجيدة ونموذج رفيع فى التخطيط السياسى والعسكرى، وهى حرب حاول بعض المتعاطفين مع السيد حسن نصرالله من العرب وبعض الكتاب المصريين ـ للأسف الشديد ـ أن يقارنوها بالحرب الأخيرة على لبنان؛ وهو ما ينم عن الجهل؛ بالإشادة ببطولات غير مذكورة ولا ينبغى تضخيمها على حساب الذاكرة التاريخية العربية للمقاومة العربية. ولكى أثبت صحة هذه الملاحظات المخيفة فقد قرأت بعناية الكتاب الذى أصدره مركز دراسات الوحدة العربية، ويتضمن الأبحاث التى قدمت فى ندوة عقدها بعنوان «الحرب الإسرائيلية على لبنان»، وقد عقدت هذه الندوة فى سبتمبر ٢٠٠٦ وشارك فيها من هذه الكلية الدكتور: حسن نافعة، ود. نيفين مسعد، ود. أحمد يوسف، وقد جاء فيها من أحد الباحثين فى معرض الإشادة بسماحة السيد: حسن نصرالله أمين عام حزب الله أن ما حدث يفوق كل ما حدث فى العالم العربى من قبل. وأنا أعتقد أن هناك تعميمات جسيمة فى هذا الكلام

وخصوصًا فى كلمة «لم يحدث من قبل» . . لأنه كما قلنا هناك بطولات عظيمة فى تاريخ المقاومة العربية؛ مثل حرب أكتوبر، كذلك ذكر د. سليم الحص بالنص: «أظهرت الحرب على لبنان صلابة منطق المقاومة، فى مقابل عقم الحرب التقليدية فى محاربة الكيان الصهيونى» . . وهذا كلام غريب فليس هناك مجال للمقارنة بين المقاومة والحروب التقليدية. والحرب التقليدية كحرب أكتوبر حررت الأرض المصرية، وبالتالى هذه المقارنة لمحاولة إعلاء ما فعله حزب الله على حساب كافة المقاومات العربية لا نعتقد أنها فكرة موضوعية.

نقطة البداية فى موضوع الثقافة السياسية والتعايش والسلام؛ هو ما أسميته ضرورة إحياء الذاكرة التاريخية العربية، وهذا الإحياء ينبغى أن يعتمد على الوسائل الإعلامية الجديدة؛ لكى نعرض على الشباب قضية المقاومة العربية فى إطارها التاريخى، وأنماطها البارزة.

النقطة الثانية هى ثلاثية: المواجهة، والتسوية، والمقاومة. . وأنا فى دراسة سابقة فى كتابى «الأسطورة الصهيونية والانتفاضة الفلسطينية» والذى صدر عام ٢٠٠١؛ كتبت ورقة بعنوان ثلاثية المواجهة والتسوية والمقاومة، ذكرت فيها المشاعر الشعبية الجياشة التى انطلقت فى مواجهة الأحداث الدامية فى فلسطين، والتى تمثلت فى الحرب البربرية التى قادتها إسرائيل لسحق الانتفاضة. . وتصريحات بعض القادة العرب ذهبت إلى أن القول إن الحل فى مواجهة إسرائيل هو الحل العسكرى؛ كلام يدل على أننا لم نتعلم بعد من نموذج حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، فهذه الدعوات الغوغائية مثل الدعوة إلى الحرب أو فتح الحدود للجهاد؛ لا تأخذ فى اعتبارها أهمية التخطيط السياسى المتقن والإعداد العسكرى قبل أن تأخذ قرارًا بالحرب. . وذكرنا فى هذه الدراسة أنه لا بد من اتباع إستراتيجية شاملة تنطوى على المواجهة والتسوية السلمية فى نفس الوقت، ونقصد بالمواجهة على وجه التحديد تبنى المقاومة كإستراتيجية عربية تعتمد على النفس الطويل، وتأخذ بكل أشكال القوة فى هذا المجال، وهى ليست القوة العسكرية فقط، ولكن هناك القوة المعرفية، والقدرة على إنتاج المعرفة واستيعاب المعرفة المعاصرة. . كل هذه أشكال متعددة من القوة لا بد أن نأخذ بها إذا أردنا أن نواجه إسرائيل مواجهة شاملة.

وفى النهاية أريد أن أشير إلى نقطتين هامتين:

النقطة الأولى: قضية الصراع بين العرب وإسرائيل هى قضية صراع حضارى، وفى مجال الصراع الحضارى هناك نظريات متعددة، وقد سبق لى أن عرضت فى كتابى «الوعى التاريخى وثورة الكونية». نموذجًا يقترحه بعض علماء العلاقات الدولية؛ حيث يفرقون بين صراع المصالح وصراع الفهم بنبرة استشراقية، يميزون فيها بين أنساق مختلفة من الثقافات كالثقافة العربية والثقافة الغربية الإسرائيلية، ويتحدثون عن ثقافة ذات نظرة «شمولية» تؤمن بالتبرير اللفظى والتعميمات، وثقافة ذات نظرة تفصيلية؛ تركز على المشكلات بشكل علمى.. هناك أيضًا تفكير ارتباطى وتفكير تجريدى؛ حيث يشيرون إلى أن العرب يميلون إلى هذا التفكير الارتباطى، الذى يقوم على الحدث بعكس التفكير التجريدى.

وحول انعكاسات الثقافة السياسية فى المجتمع الإسرائيلى والمجتمع المصرى؛ ففى المجتمع الإسرائيلى هناك دراسة يجب على مركز الدراسات السياسية بالكلية بالاشتراك مع مركز دراسات الأهرام أن يتعاونا معًا فى ترجمتها والتعليق عليها؛ وهى دراسة هامة بعنوان «ما بعد الصهيونية» (صدرت مؤخراً)، وقد انطوت على مؤشرات فى الحرب الأخيرة تدل على تفكك الروح المعنوية للمقاتلين الإسرائيليين. وما بعد الصهيونية فكرة جوهرية ترى أن الصهيونية مرحلة فات أوانها، على أساسها أقيمت الدولة وانتهت القضية، والحروب الأولى بشأن تأسيس الدولة انتهت.. ومن هنا فإن الروح المعنوية لدى المقاتلين الإسرائيليين منخفضة ومفككة، وما يمكن تسميته مناخ ما بعد الحداثة يشيع فى المجتمع الإسرائيلى؛ حيث يشيع الاستهلاك والرغبة فى التمتع بالحياة.. فلماذا يموتون فى سبيل أهداف يحددها قادة عسكريون إسرائيليون متعصبون من الجيل السابق من الصهيونية.

أنا أعتقد فى مجال الثقافة السياسية المتغيرة أننا لا بد أن نتعمق فى دراسة «ما بعد الحداثة» وما بعد الصهيونية، وتحت يدى مرجع هام لما بعد الحداثة، وهذا المرجع يحتوى على حوالى عشرين دراسة لكبار المفكرين الإسرائيليين الصهيونيين، الذين ينتقدون ثقافتهم، كذلك من المؤرخين الإسرائيليين الجدد من يتحدثون عما بعد الصهيونية، ويحاولون تثبيت المثال الصهيونى الأصلى. هذا موضوع ينبغى دراسته لأنه سيوضح التفكير الإسرائيلى إزاء العرب وإزاء التوسع الإسرائيلى.

ماذا عن الثقافة العربية السائدة الآن فى العالم العربى؟

أسميتها أنا ثقافة «اليأس»؛ لأن حلقات النظم السلطوية استحكمت حول الشعوب العربية، وولدت ردوداً شعبية يائسة. . ونلاحظ على الفضائيات تحريض الشعوب والفضائيات أيضًا على الحكام العرب بأنهم حكام ضعاف، وكلهم خونة وكلهم عملاء، ولا بد من شن الحرب على إسرائيل. . . هذا ما أسميته «ثقافة اليأس»؛ وهى ثقافة تعبر عن الغوغائية فى التفكير والغوغائية فى التعبير، والدعوة إلى شن الحرب بدون إنتاج خطاب سياسى عقلانى يميز بين المواجهة وبين التسوية وبين السلام.

لذا أعتقد أننا فى حاجة إلى دراسة متعمقة لما أسميته شيوع ثقافة اليأس فى المجتمع العربى المعاصر، ومن ناحية أخرى شيوع ثقافة ما بعد الصهيونية فى المجتمع الإسرائيلى. . هذا هو مستقبل الصراع بين مجتمع إسرائيلى يتفكك تدريجيًا، وبين مجتمع مفكك أصلاً ويفتقد رؤية إستراتيجية وليس لديه أمل فى المستقبل؛ نتيجة لاستحكام حلقات الاستبداد فى الوطن العربى.

الثقافة السياسية على كلا الجانبين إذن تجتاز أزمة، ونحن كباحثين علميين نحتاج إلى دراسة متعمقة حتى نستشرف المستقبل، ونرى كيف يمكن أن يتم التفاعل بين الجمهور الإسرائيلى فى هذه الدولة العنصرية، وبين الشعب العربى الذى يناضل من أجل تحرير أراضيه من الاحتلال الإسرائيلى، ومن الهيمنة الأجنبية على السواء.

* * *